محاضرات الفلسفة (المرحلة الأولى قسم علم الاجتماع)

يسعى الإنسان دائماً إلى فهم العالم من حوله سواء ما يتعلق به كشخص وذات أم بمجتمعه أم بالكون ككل. الفهم يجعله يقيم في عالم مألوف، فلا أشد غرابة على الإنسان من الغموض. وبالطبع، فإنّ وسائله في الفهم والتفسير ليست هي نفسها عَبر التاريخ، فلقد تطورت وازدادت قدراته على تقديم تفسيرات معقولة ومنطقية ومقبولة. العقل الإنساني في حالة تطور، يتطور في تعقله وفهمه للعالم. التطور تراكمي.

وتاريخ الفلسفة هو شاهد على هذا التطور. لم تكن تساؤلات الإنسان الأولى بعيدة عن الفكر الفلسفي، بل كانت في صميمه. مسائل الحياة والموت، علاقة الإنسان بالإنسان، أصل الوجود وغايته، معنى الحياة، وغير ذلك من الأسئلة العديدة كانت جميعها محور الفكر الفلسفي. وبطبيعة الحال، كلما تقدم الإنسان في التاريخ تكثفت وتنوعت وازدادت تساؤلاته وازدادت أجوبته. كما أن لكل عصر يمر به الإنسان جملة تساؤلات يتوجب عليه وضع حل لها.

كان التاريخ قد بدأ في أرض سومر، بلاد الرافدين، ميزوبوتاميا. ونعني ببداية التاريخ هو اختراع الكتابة. بالكتابة تمكن الإنسان من أن يخلق له ذاكرة جماعية تنتقل من جيل إلى جيل، فتكونت الحضارة، لأن الحضارة لا تنبني في يوم واحد ولا في جيل واحد، بل هي نتيجة تضافر جهود أمم وأجيال كثيرة. الكتابة سهّلت عملية النمو الحضاري.

ما قبل الفلسفة: الأسطورة

وكانت الأسطورة هي أولى إبداعات الإنسان الأول، وأولى وسائله لفهم وتفسير ما حوله. الأسطورة حكاية تقص قصص الآلهة في صورة تحاول تقديم تفسير لظواهر الحياة المختلفة. ليست الأسطورة مجرد ترف فكري، بل كانت حاجة ضرورية. بعد أن قضى الإنسان القسم الأعظم من حياته في أطوار التوحش والهمجية، فيما يسمى بعصور ما قبل التاريخ، دخلت البشرية في أخطر تجربة وامتحان لا تزال تعانيهما بانتقالها إلى طور الحضارة الناضجة. وقد تحقق ذلك لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد إلى حياة التحضر والمدنية بمختلف عناصر الحضارة الأساسية، كظهور المدن، وأنظمة الحكم، والكتابة والتدوين والقوانين المنظمة للحياة الاجتماعية، والفنون المختلفة والآداب، والممارسات الدينية، وأسس العلوم والمعارف، وأجهزة الري والزراعة وبداية السيطرة على البيئة وتسخير إمكاناتها.

وعند ذلك شرع الإنسان ينظر في هذا الكون العجيب، ويفكر في الحياة الاجتماعية الجديدة ومعانيها وقيمها وموقعه منها، وأخذ يعبر عن أفكاره وتصوراته بأساليب مختلفة. في بلاد الرافدين (ميزوبوتاميا Mesopotamia) كانت هناك أساطير للخلق، وملاحم كثيرة. من بينها ولعلها أهمها ملحمة كلكامش. وهي أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات.

 تتحدث هذه الملحمة عن سيرة الإنسان العراقي القديم، وليس عن سيرة الكائن كلكامش فقط. ففيها نجد تصورات وأفكاراً حاول العراقي القديم أن يبلورها لفهم ما يواجهه من مشكلات وألغاز وجودية وحياتية. ولعل أهم الألغاز هو لغز الحياة والموت، الخلود والفناء. ولكن لماذا تتناول هذه الملحمة مسألة الموت والخلود؟ أليس الموت حقيقياً وبدهياً، ويعرف الجميع أننا سنموت؟

إن ظاهرة الموت المتكررة المعادة رغم كونها من البديهيات لدى العقل الواعي والتفكير المنطقي إلاّ أنها مازالت لغزاً محيراً لعاطفة الفرد وأحاسيسه ورغباته وغرائزه الحياتية، وهي موضع حيرة أليمة في قرارة كل نفس بشرية، وتزدادا عمقاً وألماً كلما شارف الإنسان على أبواب الشيخوخة. إنها تتمثل على هيأة صراع بين إرادة الإنسان بتشبثها بالحياة وبين تلك الحقيقة البدهية بالنسبة للعقل والمنطق. وفوق هذا، فإن الملحمة تسمو على مجرد البرهنة على حتمية الموت. فهي تتناول مسألة أخلاقية كبرى شغلت تفكير الإنسان منذ أقدم الأزمنة، فإذا كان الموت محتماً، وإذا تعذر على الإنسان نوال الحياة الخالدة في الدنيا، فماذا ينبغي على الفرد أن يسلك في هذه الحياة الدنيا؟ هل ينبذ الدنيا ويفر منها؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعم؟ أم يقبل تحدي قانون الحياة والطبيعة ويذعن لما ليس منه بد فيضبط النفس ويقوم بتلك الأعمال التي تخلده بعد حياته كما فعل كلكامش بعد رجوعه يائساً من مغامراته في سبيل الحصول على الخلود؟

تحكي الملحمة عن كلكامش، الذي هو ثلثاه من آلهة البشر الخالدة وثلثه من مادة البشر الفانية. كان كلكامش ملك أوروك: "من ذا الذي يضارعه في الملوكية؟ من غير جلجامش من يستطيع أن يقول: أنا الملك؟" ولكن هذا الملك القوي كان ظالماً باطشاً: "لم يترك جلجامش ابناً طليقاً لأبيه، لم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار، لم يترك جلجامش عذراء لأمها." فاستغاث المظلومون، واستمعت الآلهة لمظالمهم. فقرروا أن يخلقوا له غريماً، ليكونا في صراع مستديم لتنال أوروك الراحة والسلام. فخلقت الإلهة أورورو أنكيدو القوي، يكسو جسمه الشعر الكث، لا يعرف الناس ولا البلاد، ومع الظباء يأكل، ويتدافع مع الوحش عند مساقي الماء، يجوب التلال، يرعى الكلأ مع حيوان البر.

ومن أجل ترويض هذا الوحش أنكيدو أرسلت له الآلهة امرأة فعاشرها. وعندما عاد أنكيدو إلى البرية أنكرته الحيوانات وولت عنه هاربة، خرت قواه، ولكنه صار فطناً واسع الحس والفهم. وهنا طلبت منه المرأة التي عاشرها أن تأخذه إلى أوروك ليتحدى جلجامش، لأن أنكيدو اعتقد أن الذي يعيش في الصحراء هو الأقوى.

فتصارعا في أسواق أوروك، وخارا خوار ثورين وحشيين، حطما عمود الباب وارتج الجدار. ولكن صراعهما انتهى بأن صارا صديقين. وشرعا بعد ذلك بسفر طويل فيه مغامرة فقتلا خمبابا حارس غابة الأرز. عادا إلى أوروك، وفي أوروك مات أنكيدو. موته كان سبب بحث جلجامش عن الخلود، فهو لا يريد أن يموت. ولأول مرة أدرك أن الجميع يموتون، لم يكن من قبل يدرك ذلك لأن كل من حوله كانوا دونه مرتبة ودرجة، فظن أنّ الموت يصيبهم هم لا يصيبه هو. ولكن أنكيدو صنوه ونظيره، فكان موته بمثابة جرس إنذار لجلجامش بأنه هو أيضاً يمكن أن يموت. ومن هنا بدأت رحلته من أجل الحصول على الخلود. فقطع الصحارى والفيافي والغابات بحثاً عن سر الخلود.

في طريقه مر بحانة صاحبتها اسمها سيدوري، فقالت له حكمتها:

إلى أين تسعى يا جلجامش، إن الحياة التي تبغي لن تجد، حينما خلقت الآلهة البشر، قدرت الموت على البشرية، واستأثرت هي بالحياة، أما أنت يا جلجامش فليكن كرشك مليئاً على الدوام، وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء، وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك، وارقص والعب مساء نهار، واجعل ثيابك نظيفة زاهية، واغسل رأسك واستحم في الماء، ودلل الصغير الذي يمسك بيدك، وافرح الزوجة التي بين أحضانك، وهذا هو نصيب البشرية"

ولكن جلجامش لم يأخذ بنصيحة سيدوري فمضى في طريقه يبحث عن الخلود. وعندما وصل إلى جزيرة فيها عشبة الخلود، أخذها ووضعها قرب بئر ليستحم فيه، ولكن حية شمّت شذى النبات فاختطفته. عند ذاك أدرك جلجامش أنّ الخلود ليس من نصيب البشر. لكن الإنسان يخلد بأعماله وما يقدمه لأهل مدينته.

هذا المختصر السريع يدلّ على جملة موضوعات كانت تهم الإنسان العراقي القديم

1. كل شيء فان، هذا هو الدرس الذي تعلمه جلجامش.

2.أنكيدو يمثل القوة البدوية، ويمثل جلجامش القوة المدنية الحضرية. والصراع بينهما هو هذا الصراع الذي يعرفه العراق بين البداوة والحضارة.

3.الصداقة، وهي علاقة بالغة الأهمية أكدت عليها الملحمة. فبعد معركة ضارية نشبت بين جلجامش وأنكيدو، تحول صراعهما إلى صداقة.

4. الزواج: بعد أن عاشر أنكيدو المرأة، تحول من كائن متوحش يعيش مع الحيوانات إلى كائن بشري. وهذه صورة لتحول الرجل إلى كائن أليف. وأهمية العلاقة الزوجية، ودور المرأة الكبير. وبالزواج أصبح فطناً سريع الفهم.

5. العدل والتنظيم. الدرس الذي تعلمه جلجامش بعد أن أخفق في الحصول على الخلود أن الإنسان، لا سيما الإنسان الحاكم، يحصل الخلود بعدله وحسن سيرته في رعيته وبين أبناء شعبه.

....................................

تعريف الفلسفة

إحدى أهم مشكلات الفلسفة هو تعريفها، ليس هناك تعريف واحد يتفق عليه الفلاسفة. الفلسفة ليست كبقية العلوم، فهي ذات موضوعات متنوعة ومتعددة ومتغيرة من عصر إلى آخر، كما أن الفلسفة تعتمد بشكل رئيس على وجهة نظر الفيلسوف وعلى التطور الذي بلغه عصره، وعلى المشكلات الملحة في زمانه.

الفلسفة philosophy كلمة إغريقية تتكون من كلمتين هما: حب philo وحكمة sophy. الفلسفة لغةً حب الحكمة. والفيلسوف philosopher هو محب الحكمة. يرى بعضهم أن الفيلسوف ليس حكيماً بل محب الحكمة. كان أول من استعمل لفظ الفيلسوف هو فيثاغورس، وبعضهم يرى أنه سقراط.

كان سقراط يرى أن الحكمة الإنسانية تبدأ عندما يعترف المرء بجهله، وأن الفلسفة هي مساءلة ومحاورة الآخرين عما يظنونه حقيقة، وما يعتقدون به. الفلسفة هي فن المساءلة والحوار من أجل الوصول إلى الحقيقة، والفضيلة لعيش حياة خيّرة.

أفلاطون عرف الفلسفة هي الوصول إلى معرفة عالم المُثُل معرفة يقينية لأجل التحرر من أوهام العالم الحسي، وبذلك نحقق السعادة.

أما أرسطو فكان يقسم الحكمة إلى الحكمة النظرية وهي معرفة الكون، ومقولات الوجود، وقوانين الطبيعة، والحكمة العملية وهي معرفة الخير بالنسبة للبشر.

ويعرف الفارابي الفلسفة بأنها معرفة الخالق، وهذه هي الغاية من الفلسفة.

وهناك تعريفات كثيرة للفلسفة، ويمكن لنا أن نضع تعريفاً للفلسفة وهي: "1. تكوين رؤية كلية عن العالم من أجل تعقل الحياة والوجود وفهم معناهما."

...................................

حقول الفلسفة

للفلسفة عدة حقول تقليدية وهي:

1.الميتافيزيقا metaphysics (ما بعد الطبيعة): تُعنى الميتافيزيقا بدراسة الأسباب الأولى لجميع الأشياء. فتحاول الإجابة عن تساؤلات من قبيل: ما الوجود؟ ما أصل الوجود؟ وما طبيعة الوجود الأساسية والنهائية؟ في العصر الحديث صارت الميتافيزيقا تتناول موضوعات: الحتمية، وحرية الإرادة، والعلاقة بين العقلي والجسدي.

وهناك نوع آخر من الميتافيز يقا تسمى "الميتافيزيقا الاجتماعية social metaphysics". وموضوع الميتافيزيقا الاجتماعية هو طبيعة العالم الاجتماعي، مؤسساته، ونظمه، وكياناته. والقصد من ذلك التمييز بين الطبيعي والاجتماعي في تكوين هذه الكيانات.

2. نظرية المعرفة (الأبستمولوجيا Epistemology)

الميدان الرئيس لهذا الحقل الفلسفي هو المعرفة، يحاول أن يحلل ويفسر طبيعة المعرفة، وكيف نعرف، وما وسائل المعرفة، وحدود المعرفة، وما العلاقة بين العارف والمعروف (أو بين الذات والموضوع). تكمن أهمية نظرية المعرفة في أنها تحاول أن تبين مشروعية ومصداقية ما نعرفه وقدرتنا البشرية على المعرفة، ونصيب الحواس والعقل والإيمان في تشكيل ذخيرتنا المعرفية.

في العصر الحديث، بدأت نظرية المعرفة تضع باعتبارها البُعد الاجتماعي في تكوين المعرفة. فمادمنا كائنات اجتماعية، نولد ونعيش ونموت في مجتمع. فالمجتمع له تأثير ساحق في تكوين معارفنا، لذلك ظهرت ما يسمى بالنظرية الاجتماعية في المعرفة، التي تحاول أن تبين تأثير المجتمع في تكوين معارفنا، وقولبة عقولنا، وتحديد أفكارنا. المبدأ الأساسي في هذه الدراسة أن المعرفة تحدث في حاضنة اجتماعية ينتمي إليها الفرد، فهل يبقى رهينها أم يستطيع أن ينعتق منها، ويبدأ بالتفكير بطريقة مختلفة؟

3. المنطق Logic:

الإنسان كائن عاقل، وهذه هي ماهيته، وهذا هو جوهره. فبالعقل يتميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات. الإنسان كائن عقلاني. ولكن ما العقلانية؟ أحد معاني العقلانية أننا ننخرط في أنشطة وفعاليات تقوم على التفكير. والمنطق هو العلم الذي يبحث في القواعد الصورية أو الشكلية للفكر، أو هو نظرة الشروط الواجب توفرها للاستنتاج الصحيح. وأشهر أنواع المنطق وأقدمها هو المنطق الصوري أو الشكلي وهو منطق أرسطو، ويسمى المنطق الأرسطي. فللتفكير صورة ومادة. التفكير الصوري يدرس صورة الفكر أو شكله. وهو منطق يهتم بالتصورات والتصديقات دون مضمونها الواقعي.

4. فلسفة الأخلاق: ما الخير؟ ما الشر؟ ما الحق؟ ما الباطل؟ هل الخير موجود في الفعل نفسه، أم أننا نضفيه عليه؟ هل هناك معايير للفعل الخلقي الجيد؟ هذه الأسئلة وغيرها هي الأسئلة الرئيسة التي تنشغل بها فلسفة الأخلاق. ويمكن أن نميز بين نوعين من دراسة الأخلاق: الدراسة الوصفية، والدراسة المعيارية. الوصفية تُعنى بدراسة ما هو كائن، أي الأفعال التي تحدث ضمن مجتمع معين وتوصف بأنها خيّرة أو شريرة، أو مقبولة أو مرفوضة. أما الأخلاق المعيارية، وتسمى أيضاً بأخلاق الواجب، التي تُعنى بما ينبغي أن يكون. بمعنى أنّها تضع معايير على أساسها تميز الصح من الخطأ والخير والشر. تسمى أخلاق الواجب أو ما ينبغي أن يكون لأنها تريد أن تجري الأفعال على وفق هذه المعايير.

5. الفلسفة الاجتماعية: هي الدراسة الفلسفية للعالم الاجتماعي: للهويات الفردية والجماعية، للعلاقات والبُنى الاجتماعية، علاقة القوة والسلطة في المجتمع، لوسائل الاتصال الاجتماعي، للمال، للمؤسسات الاجتماعية. دراسة اللغة، باعتبار أن اللغة كائن اجتماعي، ونظاماً تركيزياً يتأثر بالحياة الاجتماعية ويؤثر فيها. الفلسفة الاجتماعية تواكب النظريات الاجتماعية، وتهتم بتأمل والتفكر في نتائجها ومنطلقاتها. في القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي شهد البداية العلمية لعلم الاجتماع، ظلت الفلسفة جزءاً أساسياً فيه. فلاسفة هم في الوقت منظِّرون اجتماعيون.

..................................................

العلاقة بين الفلسفة وعلم الاجتماع

صار علم الاجتماع علماً في القرن التاسع عشر على يد علم الاجتماع الفرنسي أوجست كونت. هذا هو الرأي الغالب والسائد، ولكن هناك من رأياً آخر. ما يعنينا هنا أن الموضوعات التي صارت من اختصاص علم الاجتماع، كانت الفلسفة تهتم بها، وتبحث فيها. فالمجتمع الإنساني يمثل شغلاً شاغلاً للفكر بعامة والفكر الفلسفي بخاصة. فليس ثمة أمر أهم من تنظيم الحياة الاجتماعية، وإدارته وتيسير الحياة الاجتماعية. ولأجل هذا كان الفكر الإنساني بجميع تجسداته معنياً بهذه المسائل. الأديان، والأساطير، والفلسفات انشغلت بذلك. وسوف نرى ذلك بوضوح عندما نستعرض شيئاً من تاريخ الفلسفة.

الفلسفة وعلم الاجتماع يكمّل أحدهما الآخر. فكلاهما يتعمقان في فهم دور العقل، والأخلاق، والأعراف الاجتماعية والسلوك البشري. ولقد حقق علماء الاجتماع والفلاسفة إنجازات رائعة في العلاقة بين الذات والمجتمع. وتعتبر دراسة الفلسفة نشاطاً مثيراً للاهتمام وإن كان صعباً، في المقابل يركز على الاجتماع على المجتمعات البشرية وقضايا من قبيل عدم المساواة، والتغير الاجتماعي، والهويات الاجتماعية والعولمة.

في العصر الحديث، ولا سيما منذ القرن التاسع عشر، وحتى بعد استقلال علم الاجتماع علماً قائماً بذاته، بدأت الفلسفة تنظر إلى مفاهيمها وتصوراتها المجردة من منظور اجتماعي. فبرز المجتمع عنصراً مهماً في تفسير ظواهر فكرية كانت في السابق مجردة بعيدة عن الواقع. فهذا كارل ماركس يقول إن الوعي يتحدد اجتماعياً، بمعنى أن موقع الفرد الطبقي يسهم في تشكيل وعيه. وعليه، فيجب دراسة المجتمع لكي نفهم الوعي السائد فيه.

لكن ما يميز الفلسفة عن علم الاجتماع أنها تحاول فهم الواقع من حيث كليته. فبينما يفسر علم الاجتماع المجتمعَ على وفق ما يلاحظه من حقائق ووقائع في المجتمع، فإن الفيلسوف يفسر المجتمع بموجب التفسير الذي يقدمه للواقع ككل. يميل علم الاجتماع إلى الوقائع التجريبية والفلسفة تميل إلى التفسيرات العامة وإن لم تهمل الجزئيات. في مسألة الأخلاق مثلاً، يدرس علم الاجتماع أخلاق مجتمع معين من منظور وصفي، أي يفسر الأخلاق كما هي على أرض الواقع، بينما بعض الفلاسفة يميلون إلى النظر إلى الأخلاق من منظور ما يجب أن يكون.

لو أخذنا مثالاً ملموساً وهو ظاهرة الفقر. الفقر ظاهرة اجتماعية، يحاول علماء الاجتماع دراسته تجريبياً، وإحصائياً، ويقدمون تفسيراتهم بمقتضى المجتمع الذي توجد فيه هذه الظاهرة، أما الفيلسوف فيعني بالفقر من حيث كليته، من حيث علاقته بالإنسان ككل. كلا علم الاجتماع والفلسفة يهتمان بالموضوع نفسه لكن من منظورين متمايزين وإن لم يكونا متعارضين.

................................................................

بدايات الفلسفة:

ليس هناك بين الباحثين اتفاق على مسألة بداية الفلسفة. وهذه بحد ذاتها مشكلة تاريخية وفلسفية. ونحن لسنا هنا بوارد الدخول فيها، لذلك سوف نبدأ بتأريخ الفلسفة على وفق السائد من آراء. يذهب الكثير من مؤرخي الفلسفة إلى أن الفلسفة بدأت مع اليونان (الإغريق) القديمة. حضارة اليونان في القرون التي سبقت الميلاد، كانت حضارة مزدهرة، تطورت فيها المدن، وتوسعت، وضمت شعوباً مختلفة، كانت اليونانية ثقافتها. ومع الحضارة اليونانية القديمة تحول التفكير من أسلوب قائم على الأسطورة إلى أسلوب تفكير قائم على التجربة والعقل. في بداية الفلسفة، كان هدف الفلاسفة اليونانيين التوصل إلى تفسير طبيعي للعمليات التي تحدث في الطبيعة. السؤال الأول الذي تناوله فلاسفة اليونان الأوائل هو: ما أصل جميع الأشياء؟ ما أصل الكون؟ هل يمكن إرجاع هذا التنوع في المظاهر الطبيعية إلى عنصر واحد أو عناصر قليلة؟

أول فيلسوف في تاريخ الفلسفة هو طاليس الملطي (624 ق. م. – 550 ق. م.) قال إن أصل جميع الأشياء هو الماء. قد يبدو هذا القول اليوم في ظاهره بسيطاً، ولكنه كان يعتبر آنذاك تقدماً في المعرفة خصوصاً أنه تأسس على ملاحظاته الخارجية. فالاختلاف بين جميع الكائنات هو في كمية الماء التي يتركب منها هذا الشيء أو ذاك. ولكن ما يهم في هذا المبدأ أنه وضع فكرة فلسفية مفادها "أنّ الكلَّ واحد." فمهما بدت الأشياء والظواهر الطبيعية مختلفة من حيث الكيف فإن لها جميعاً جوهراً واحداً هو الماء. هنا ظهرت فكرة الجوهر: أي العنصر الذي يدخل في تركيب كل شيء وهو الماء. وهذا التفسير هو أول تفسير تجريبي وليس أسطورياً.

كان إثارة سؤال : ما هو أصل الأشياء فاتحة عهد جديد للفكر، الذي سوف يسمّى فلسفة.

ثم توالت إجابات أخرى مختلفة: فهذا أنَكسمندر (611 ق. م. – 547 ق. م.) قال إنه لا يمكن أن يكون الماء هو أصل الأشياء لأن الماء له صفات محددة، فلا يمكن أن يكون أصل السيولة والصلابة في الوقت نفسه. واقترح أصلاً آخر سماه "اللامتعيّن" أي عنصر لا شكل له. ولكن جاء فيلسوف آخر وردَّ هذا القول، لأنه لا يمكن أن يظهر الشكل من اللاشكل. فالأشياء والظواهر الطبيعية لكل واحد منها شكل، أي كيفية معينة، فكيف تظهر من اللاشكل. ولذلك اقترح فيلسوف آخر وهو أنكسمينس (588 ق. م. – 524 ق. م.) عنصراً آخر وهو الهواء. فالهواء له صفات لا يمكن أن ينكرها أحد، كما أنه موجود في كل مكان. أليست الحياة أنفاساً من الهواء بين شهيق وزفير؟

فيثاغورس (570 ق. م. – 495 ق. م.)

ذهب فيثاغورس إلى رأي آخر يختلف عن الآراء السابقة، فليس جوهر الأشياء وعنصرها الأول إلا العدد. العدد وليس أي شيء آخر. لأننا إذا نظرنا في جميع الأشياء وجدناها تتميز عن بعضها بصفات معينة: فللوردة صفات تُعرف بها، وللنار خواص بعينها، وهكذا جميع الأشياء. ولكن تلك الصفات قد تكون وقد لا تكون، فنحن يمكن أن نتخيل كوناً معيناً من دون لون ولا طعم ولا رائحة، ولكن لا يمكن أن نتخيل الأشياء من دون العدد. البرتقالات العشر لها لون وطعم، ولكن من الممكن أن نتخيلها بغير لونها هذا وبغير طعمها هذا، ولكننا لا نستطيع أن نتصورها غير قابلة للعد. فالعدد صفة ملازمة لا تزول عن الأشياء.

في هذه الحقبة من تاريخ الفلسفة فلاسفة كثر، من أبرزهم غير الذين مررنا بهم هما:

بارمنيدس

رأي بارمنيدس في العالم من حوله أن كل شيء في حال تغير وتقلب. وهذا التغير لا يناسب المعرفة، لأن المعرفة من شأنها أن تبحث عما هو خالد ودائم وثابت وليس عما هو متغير. ولكنه أدرك أن ما يتغير من الأشياء هو صفاتها أي الأشياء العَرَضية، أما جوهرها فيجب أن يكون ثابتاً هذا الجوهر هو الوجود. فكل شيء مهما كان له جوهر رئيس هو أنه موجود. هنا يكون بارمنيدس قد بدأ فكرة فلسفية مجردة هي الوجود: جميع الأشياء نقول عنها إنها موجودة. ما يبدو للحس يتغير، ولكن هناك ما يقع خلف الظواهر الحسية هو الوجود، الثابت الذي لا يتغير. والوجود ليس صفة كغيره من الصفات، وليس عَرَضاً كغيره مت الأعراض. فنحن يمكن أن نتخيل صفات وأعراض شيء ما، ولكن لا يمكن أن نتخيل عدم وجوده. فالوجود ليس صفة. إنه جوهر بسيط لا يمكننا حتى أن نحدده بدقة. إن هو هو. به الأشياء تكون.

هيرقليطس (535 ق. م. – 475 ق. م.)

على عكس بارمنيدس، رأى هيرقليطس أن الكون في حالة تغير دائم، وأن الوجود الثابت الذي يبدو للحواس مجرد وهم. فكل شيء في حركة، هناك اختلاط بين الوجود واللاوجود، وهذا التغير والسيولة الدائمة في الأشياء تشبه حركة النار. لذلك رأى هيرقليطس أن النار هي جوهر هذا الكون، لأن النار هي الحياة، والظلمة هي الموت. فكل ما نراه يلتهب مثل نار، يعني أنه يتغير تغير لهيب النار. ولهرقليطس عبارة شهيرة: "إنك لا تنزل إلى النهر مرتين لأن مياها جديدة تجري دائماً". النهر الذي يبدو ثابتاً هو ليس ثابتاً، الماء الذي كان هنا قبل لحظة مر وجاء ماء غيره، فالنهر في حالة تغير دائمة.

..........................

جميع الفلاسفة السابقين، وهناك غيرهم لم نتطرق إليهم، ينتمون لعصر فلسفي يسميه مؤرخو الفلسفة فلسفة ما قبل سقراط، وكانوا جميعهم يتناولون مسألة أصل الكون والعالم. فكان شاغلهم هو العالم الخارجي، الطبيعة، والوجود بعامة. وقد اختلفوا كما رأينا في تفسيرهم لأصل هذا الكون، ولكنهم جميعاً كانوا يفكرون كفلاسفة، ويعززون أراءهم بالتفكير العقلي والدليل التجريبي.

السوفسطائيون

كان السوفسطائيون طائفة من المعلمين يتجولون في مدن اليونان يلقون المحاضرات ويتقاضون على تعليمهم أجراً، وكان الناس يكرهونهم لذلك، لأن اليونانيين كانوا يرون أنه يجب أن يكون التعليم من دون مقابل. كانوا يعلمون الناس موضوعات مختلفة يتطلبها الشعب إذ ذاك؛ بروتاجوراس كان يعلم قواعد النجاح في السياسة، وجورجياس Gorgias كان يعلم البلاغة وعلم السياسة، وبروديكوس Prodicus قواعد النحو والصرف، وهبياس Hippias التاريخ والطبيعة والرياضة، وعلى العموم كان غرضهم تعليم اليونان ليكونوا مواطنين صالحين للحياة، وكانت السياسة والاشتغال بها أكبر شاغل لعقل اليونان إذ ذاك، وكان الطموح لشغل منصب سياسي كبير مستولياً على أذهان كثيرين، وقد ساعد على ذلك سيادة الديمقراطية يومئذ، فكان أهم ما يحتاج إليه الطالب البلاغة والإلقاء والقدرة على الجدال حتى يستطيع أن يواجه كل مسألة تعرض له، إما بفكرة صحيحة أو بلعب بألفاظ لإفحام السائل؛ لذلك كان من أهم تعاليمهم علم البلاغة، وهم يعدون بحق مؤسسي هذا العلم، وكان ذلك يكون محموداً لو أنهم وقفوا موقفاً صحيحاً في تعليم البلاغة وخدموا بها الحقيقة حيث كانت، ولكنهم قصدوا إلى تعليم الشباب كيف يخدمون الفكرة كائنة ما كانت، وعلى أي وجه كان، بالحق أو بالباطل، فكان شأنهم شأن محام يخدم قضيته من أي سبيل، حتى روى عن أحدهم «جورجياس» أنه قال: ليس من الضروري أن تعلم شيئًا عن الموضوع لتجيب، وقال إن في استطاعته أن يجيب كل سائل عن كل ما يسأل؛ لذلك كانوا يعلمون كيف يكسبون خصومهم بكل الوسائل، باللعب بالألفاظ، بالاستعارات والكنايات الجذابة، بخداع المنطق وتمويه الحقيقة، ومن أجل ذلك سمِّي اللعب بالألفاظ والتهريج في الحجج «سفسطة» اشتقاقًا من السوفسطائيين.

أشهر السوفسطائيين هو بروتاغوراس (وُلِدَ 480 ق. م. – 410 ق. م.)

محور فلسفته عبارته الشهيرة: "الإنسان مقياس الأشياء." فما يظهر للشخص أنه الحقيقة يكون هو الحقيقة له، فإذا اختلفنا في رؤية شيء، فما أراه أنا حق بالنسبة لي وما تراه أنت حق بالنسبة لك، واستمر بروتاجوراس في نظريته فقال: ليس هناك خطأ، بل مستحيل وجود الخطأ، فكل ما تراه صواب لك، بل لفظتا الخطأ والصواب لا معنى لهما، فليس هناك شيء يسمى حقاً في ذاته أو في الواقع أو نحو ذلك، ويظهر أن الذي دعا بروتاغوراس إلى هذا أنه رأى أن المعلومات التي تصل إلينا إنما تصل من طريق الحواس، وإدراك الحواس مختلف عند الناس، فلا يمكن الاعتماد عليها لإدراك أن هناك شيئًا حقاً خارجياً في الواقع.

أما السوفسطائي الآخر جورجياس، فقد عُرفت عنه القضايا الثلاث الآتية: "لا شيء موجود"، و"إن وُجدَ شيء فلا يمكن أن يُعرف"، و"إذا أمكن أن يُعرف فلا يمكن إيصاله إلى الغير."

سقراط (470 ق.م. – 399 ق. م.)

مع سقراط تدخل الفلسفة منعطفاً جديداً، كان سقراط الخصم القوي والعنيد للسوفسطائيين. والحكمة التي كان يرفعها هي "أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أني لا أعرف شيئاً". إذا كانت الفلسفة قبل سقراط تبحث في أصل الطبيعة والوجود، فإن سقراط بحث في طبيعة الإنسان وماهيته، وبذلك قيل إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض. محاوراته مع الناس تجري في كل مكان، وكان هدفه أن يظهر لمحاوره كم أن الإنسان يكون جاهلاً ولكنه لا يدري بذلك، فيدعي العلم. يسأل أحدَهم ما الخير، مثلاً، ويدخلان في حوار، وينتهي المحاور إلى اكتشاف جهله. هذا الهدف من إظهار جهل الناس هو لكشف غرورهم وادعاءاتهم بالمعرفة. ولكن هذا المنهج في الحوار ألَّب عليه ساسة أثينا وحكامها، فاتهموه بثلاث تهم: إنكاره آلهة اليونان، والدعوة إلى آلهة جديدة، إفساد عقول الشباب بأفكار جديدة. ثم حُكم عليه بالموت.

كان شعار سقراط الفلسفي هو "اعرف نفسَك بنفسِك." فليس هناك أجلّ وأسمى من معرفة النفس البشرية، طباعها وأخلاقها.

كان السوفسطائيون أشاعوا مبدءاً فلسفياً وهو "إن الأخلاق اعتبارات شخصية" و"إن الإنسان مقياس جميع الأشياء". قولهم هذا جعل الأخلاق نسبية متغيرة، وجعل المعرفة غير يقينية. لذلك تصدى لهم سقراط فحاول أن يجد للأخلاق مقياساً ثابتاً لا يتبدل بتبدل أهواء الإنسان.

لنشرح الخلاف الكبير بين سقراط والسوفسطائيين على النحو الآتي:

ذهب السوفسطائيون إلى أنّ الحواس هي وحدها السبيل إلى وصول المعلومات إلى الذهن، فالإدراك الحسي هو أساس المعلومات جميعاً، ولما كان هذا الإدراك يختلف باختلاف الأشخاص، كانت المعلومات التي تجيء عن طريقه مختلفة كذلك، وإذن فلسنا نعرف من الحقيقة إلا هذه الصور المختلفة التي تقدمها إلينا الحواس، ولا يمكن التسليم بأن هناك في الخارج حقائق للأشياء ثابتة مع تباين الأشخاص في إدراكها؛ لأنه حتى لو كان في الخارج تلك الحقائق الثابتة فلا سبيل إلى معرفتها ما دمنا نعتمد على الحواس وحدها، فكانت رسالة سقراط أن يبني تحصيل المعرفة على العقل لا على الحواس، وبذلك يثبت ما أنكره السوفسطائيون من وجود الحقائق الثابتة في الواقع الخارجي، ولشرح ذلك نقول:

إذا رأيت رجلا ً أو شجرةً أو قلماً، فإحساسك بهذا الشيء الذي تراه إدراك لجزئي واحد من الجزئيات، ولكن لديك إلى جانب هذه الأشياء الجزئية التي تحصلها حواسُك مما تصادفه في العالم الخارجي مجموعة من الأفكار العامة تتعلق بالأنواع لا بالأشياء الجزئية ذاتها، وهذه الأفكار العامة لم تصل إليك من طريق الحواس، وإنما نبعت من عقلك ذاته، فأسماء الأنواع كالإنسان والشجرة والمنزل والحيوان لا نطلقها على جزئي واحد، بل على النوع كله، ونعني بها الصفات التي يشترك فيها كل أفراد النوع، ولا ندخل في حسابنا تلك الصفات التي تظهر في بعضها دون بعض، فالفكرة العامة عن الحصان ليس فيها صفة البياض؛ لأنه إن اتصف بعض الجياد بهذا اللون فبعضها الآخر ليس كذلك، ولكنها تتضمن مثلا صفة الصهيل؛ لأنها جميعا تشترك فيها، فهذا الجمع بين الصفات المشتركة في أفراد النوع وإبعاد الصفات العارضة، هو من عمل العقل لا الحواس، وهو ما نسميه إدراكا عقلياً أو كلياً، وهذه الإدراكات العقلية أو الكلية عند سقراط هي المعرفة؛ ولذلك لم يتردد في اعتبار العقل أداة تحصيل المعرفة دون الحواس، على خلاف ما رأى السوفسطائيون من أن المعرفة كلها لا تعدو الإدراكات الجزئية التي تصل إلى الذهن عن طريق الحواس.

وإذا كانت الحواس ومدركاتها تختلف باختلاف الأشخاص فليس العقل كذلك، إنما هو عام مشترك عند جميع الناس، وما دمنا قد سلمنا بأنه أداة المعرفة، فقد وصلنا إلى نتيجة خطيرة جدا تهدم تعاليم السوفسطائيين من أساسها، وهي أن الحقائق الخارجية ثابتة؛ لأن الناس جميعا يرونها بمنظار واحد، هو العقل، الذي لا يختلف إدراكه في شخص عن شخص آخر.

هذا الإدراك العقلي للأنواع هو في الواقع تعريفها، فإذا أردنا أن نُعرِّف كلمة إنسان أدخلنا في التعريف الصفات التي يشترك فيها كل أفراد الإنسان دون الصفات العارضة الخاصة ببعض الأفراد، فلا يجوز مثلاً أن نعرِّف الإنسان بأنه حيوان أبيض؛ لأن هذا اللون لا يشترك فيه جميع الأفراد، ولا أن نقول هو حيوان متكلم بالعربية، لأن هذه اللغة خاصة بطائفة معينة، ولكننا لا نخطئ حين ندخل في التعريف صفة التفكير؛ لأنها عامة شاملة لجميع الأفراد، وإذا كانت طريقة تكوين التعريف هي نفس الطريقة التي تتبع في تكوين المدركات العقلية، أي جمع الصفات المشتركة وإسقاط الصفات الخاصة، فلا شك في أن التعاريف هي التعبير عن مدركاتنا العقلية، وما دام في مقدورنا أن نصوغ لكل نوع تعريفاً جامعاً لصفاته الجوهرية، أمكننا بذلك أن نحصل على مقاييس للحقائق الخارجية؛ لأننا لو عرفنا المثلث مثلا استطعنا أن نقارن كل شكل هندسي في الخارج بهذا التعريف لنحكم في يقين هل هو مثلث أم شكل آخر، وليس من حق الأشخاص أن يختلفوا في حقيقته، فيصر أحد على أنه مثلث بينما يؤكد الآخر أنه مربع، ما دام لديهم مقياس يرجعون إليه عند الخلاف، وإذن فنحن نستطيع أن نصوغ للفضيلة تعريفاً يقوم على أساس إدراكنا العقلي لصفاتها المشتركة في كل الأعمال الفاضلة، وبذلك يكون لدينا معيار نقيس به أفعال الناس فنميز بين خيّرها وشرّها، ولا يجوز للسوفسطائيين بعدئذ أن يجاهروا برأيهم بأن ما أراه حقاً هو حقٌ لي، وما يطيب لي عمله فضيلةٌ بالنسبة لي؛ لأننا ظفرنا بمقياس يقره العقل، وهو عنصر مشترك عند كل الأشخاص، يمكننا أن نرجع إليه فنحكم على العمل مستقلا عن نزوات الشخص وميوله. تلك هي نظرية المعرفة التي أعلنها سقراط، والتي تقوم على أساس الإدراكات العقلية الحسية، فتوصلنا إلى حقائق الأشياء كما هي في الخارج مستقلة عن الإنسان، وأخذ سقراط يسأل بعد هذا: ما الفضيلة؟ ما الحكمة؟ ويحاول أن يصل إلى تعريف يعبر عن إدراك العقل لها، ليضع أساساً للأخلاق تنطبق عليه مدلولاتها الخارجية، سواء صادفت هوى من الشخص أم لم تصادف، وكان يلجأ في ذلك إلى طريقة "الاستقراء"، فيسوق أمثلة كثيرة للشيء الذي يريد أن يضع تعريفاً له، ويستخلص الصفات المشتركة من تلك الأمثلة الجزئية، ثم يصوغها في تعريف، فإذا تم له ذلك أخذ يطبق تلك القاعدة الكلية على جزئيات جديدة ليرى مقدار انطباقها على القاعدة التي وصل إليها، فإن لم يجدها مطابقة لها تماماً عاد إلى قاعدته يعدل فيها ويصحح حتى يكون التعريف جامعاً مانعاً

 ولم يقصد سقراط أن تكون نظرية المعرفة التي تَقَدم بها مقصودة لنفسها، إنما اتخذها وسيلة يستغلها في تطبيقها على الحياة العملية، وهذا شأن سقراط، لا يُعنى بالنظريات إلا إن كانت تعينه على أغراض الحياة العملية، فلم يرد بمعرفة الإدراك العقلي للفضيلة — أعني تعريفها — إلا أن يتمكن من السلوك سلوكاً فاضلا ينطبق على الفضيلة حسب ما أدركها العقل من صفاتها.

وهنا نصل إلى أساس النظرية الأخلاقية عند سقراط، وهي توحيد الفضيلة والمعرفة، فقد كان يعتقد اعتقاداً راسخا أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل الخير إلا إذا عرف ما هو الخير، وبعبارة أخرى إلا إذا عرف الإدراك العقلي للخير، فالعمل الأخلاقي مؤسس على المعرفة ويجب أن يصدر عنها، بل إن الفضيلة والعلم شيء واحد، فيستحيل أن تعرف الخير معرفة صحيحة ولا تعمله، كما يستحيل أن تعمل الخير ولا تعرفه، فيكفي في نظر سقراط أن يعلم الإنسان ما هي الفضيلة حتى يكون بمنجاة من فعل الرذيلة، وكل عمل شر إنما يصدر عن الجهل بالفضيلة؛ لأن الإنسان لا يسعه إذا عرف الخير أن يفعل شراً، وكل الناس ينشدون الفضيلة ولو أنهم يختلفون في معناها، يقول سقراط: «لا يمكن أن يتعمد إنسان الوقوع في الشر، وإذا ارتكبه فلأنه لا يعرف الإدراك العقلي للخير، ولما كان يجهل حقيقة الخير تراه يفعل الشر وهو يظن أنه العمل الصحيح.» وقال سقراط أيضاً: إذا تعمد الإنسان فعل الشر فهو خير من أن يفعله غير عامد.» لأن الأول فيه الشرط الأساسي لعمل الخير، وهو معرفة ما هو الخير، أما الثاني فلا خير فيه ما دامت تعوزه المعرفة نفسها.

 والخلاصة أن سقراط قد ذهب إلى أنَّه «لا فضيلة إلا المعرفة (العلم)» واستنتج من هذه النظرية نتيجتين

١) أن الإنسان لا يستطيع أن يعمل الخير ما لم يعلم الخير، وكل عمل صدر لا عن علم بالخير فليس خيراً ولا فضيلة، فالعمل الخيري لابدَّ أن يكون مؤسساً على العلم ومنه ينبع.

 (٢) أنّ علم الإنسان بأنّ الشيء خير علماً تاماً يحمله حتما على عمله، ومعرفته بضرر شيء تحمله حتما على تركه، وليس إنسان يعمل الشر وهو عالم بنتائجه، فكل الشرور ناشئة عن الجهل، ولو علم المرء أين الخير لعمله حتما؛ وعلَّل ذلك بأن كل إنسان بطبيعته يقصد الخير لنفسه ويكره لها الشر، فمحال أن يفعل ما يضرها وهو عالم بضرره، فما يصدر عن إنسان من الخطأ إنما منشؤه الجهل بالعمل، وعلاج الشرير أن يعلم نتائج الأعمال السيئة التي تصدر عنه، ولتعويد إنسان على الخير وجعله مصدرا للفضيلة يجب أن يعلم نتائج الأعمال الحسنة. وتوسع سقراط في تطبيق نظريته، فعنده الإنسان الخير هو الذي يعلم ما يجب عليه، والملك الصالح هو الذي يعرف كيف يحكم الناس حكماً عادلا وهكذا.

وقد نشأ عن نظرية سقراط في الأخلاق نتيجتان؛ الأولى: أن الفضيلة يمكن أن تُعلَّم وإن كانت ليست يسيرة في تعلمها كما هو الحال في الحساب مثلا؛ لأنَّها تعتمد على عدة عوامل أخرى كالوراثة، وأثر البيئة، والتربية، والتجربة وغيرها.

 ولكن إذا كانت المعرفة ممكنة التعلم وجب أن تكون الفضيلة كذلك، وأهم عقبة تحول دون معرفة الفضيلة هي صعوبة أن تجد معلما يعرف معناها، والنتيجة الثانية هي أن الفضيلة واحدة وهي المعرفة، وإن شئت فسمها الحكمة، وليس غيرها من الفضائل كالشجاعة والعفة والعدل إلا مظهرا من مظاهرها وصادرة عنها.

أفلاطون (427 ق. م. – 347 ق. م.)

كان أفلاطون تلميذاً لسقراط. لم يترك سقراط شيئاً مكتوباً، اعتمد في نشر أفكاره على الحوارات. أما أفلاطون فقد وصلتنا منه كتب كثيرة، كتبها على شكل حوارات، تسمى محاورات أفلاطون. وأبرز شخصية فيها هو سقراط. ليس هناك فيلسوف يضارع أفلاطون مكانة وأهمية اللهم إلاّ تلميذه أرسطو. هما أشهر فيلسوفين يونانيين بل أشهر فيلسوفين في تاريخ الفلسفة كلها. حتى لقد قيل إن المرء إما أن يكون أفلاطونياً، أي مثالياً، وإما أن يكون أرسطياً، أي واقعياً.

كانت جميع الموضوعات في متناول فلسفة أفلاطون. تابع أفلاطون استاذه سقراط في فكرة أن المعرفة أو العلم هو العلم بالكليات، وليس بالجزئيات. فمعرفة الإنسان لا تتجه إلى هذا الإنسان أو ذاك بل تتجه إلى الإنسان بما هو إنسان. ولكن أفلاطون قال إن هذه الكليات هي ليست مجرد تصورات عقلية، كما رأى سقراط، بل هي كيانات واقعية موجودة في عالم يسميه "عالم المثل." هذا العالم هو العالم الحقيقي الكامل التام، الذي لا يمكن الوصول إليه حسياً بل عقلياً فقط. بمقابل هذا العالم العقلي هناك العالم الحسي الذي نعيش فيه. عالم المحسوسات الذي يحيط بنا هو عالم المظاهر والصور الناقضة، هو نسخة عن ذلك العالم الأصل. فلدينا إذن عالمان عالم المثل هو الأصل، والعالم الحسي الذي نعيش فيه هو عالم النسخ.

المعرفة الحقيقية هي معرفة تلك الكليات الموجودة في عالم المُثُل، أما معرفة العالم الحسي فهي معرفة ناقصة، ولكنها الطريق الذي يؤدي إلى معرفة عالم المثل. خذ الجمال مثلاً: فإن سألتُك عن الجمال ما هو، فقد تشير إلى وردة قائلاً: إن في هذه الوردة جمالاً، كما تقول ذلك في حسناء، وكما تقوله في المنظر الطبيعي الجميل، وفي الليلة المقمرة، ولكن هذه كلها أشياء جميلة وليست هي الجمال في ذاته، وأنا أسأل عن شيء واحد هو الجمال، لا أشياء كثيرة يتمثل فيها الجمال، فإن كانت الوردة مثلا هي الجمال استحال أن تقول ذلك في أي شيء آخر؛ لأن الجمال شيء واحد، وآية ذلك أن له في اللغة لفظاً واحداً، هو شيء غير هذه الأشياء التي أشرت إليها، فماذا عساه أن يكون؟ قد تعترض بأن ليس هناك جمال واحد، وأنه متعدد يظهر في الأشياء ولا يكون شيئًا بذاته، ولكن ما الذي دعاك إلى القول بأن الوردة والمرأة والمنظر والليلة المقمرة تشترك جميعا في صفة واحدة هي الجمال؟ أليس ذلك دليلا ًعلى أنك وجدت وجهاً للشبه بينها؟ ومن أدراك بهذا الشبه؟ إنها ليست العين؛ لأن البصر لا يدل على أن الوردة تشبه في منظرها الليلة المقمرة، هذا فضلا عن أن التشابه بين الأشياء لا يُعلم إلا بالمقارنة، والمقارنة لا تكون بالحواس، إذن لابد أن يكون في ذهنك فكرة عن الجمال تقيس بها الأشياء الخارجية، فتعلم مقدار ما لها من جمال، وبهذه الفكرة الذهنية استطعت أن ترى وجه الشبه بين الوردة والليلة المقمرة لأن كلا منهما فيه شبه بالصورة التي لديك. هذه الصورة التي في ذهنك هي الجمال الكلي، وهي ليست فقط صورة ذهنية بل لها وجود واقعي في عالم المثال.

هذه المُثُل تتسم بالآتي:

1. هي عناصر، ومعنى عناصر في الفلسفة أن وجودها من نفسها، لم يسبب وجودها شيء خارج عنها، وأنها أساس الأشياء ولا شيء أساس لها، لا تعتمد على شيء وغيرها يعتمد عليها، وهي الأُسس الأُولى للعالم.
2. وهي عامة وليست خاصة. فمثال الإنسان ليس إنساناً خاصاً بل هو الحقيقة العامة لكل إنسان.
3. وهي ليست أشياء مادية بل معاني مجردة، لها وجود في نفسها مستقل عن كل عقل، وما في العقل — إذا صدق — صورة لها.
4. وكل مثال وحدة لا تتعدد، وإنما الذي يتعدد أفرادها، فمثال الإنسان واحد، ومثال الجمال واحد، وإنما يتعدد الأشخاص.
5. وهي أبدية لا تفنى إنما تفنى الأشخاص، فالأشياء الجميلة تفنى، أما مثال الجمال فلا، كالتعاريف، فتعريف الإنسان حقيقة خالدة لا تتأثر بما يطرأ على أفراد الإنسان من تغير.
6. وهي جوهر الأشياء؛ لأن التعريف يشتمل على الصفات الجوهرية للشيء، فإذا عرَّفنا الإنسان بأنه حيوان مفكر فمعنى هذا أن التفكير هو جوهر الإنسان، وأما الصفات العارضة كشكل الأنف مثلا فلا تدخل في التعريف
7. كل مثال كامل، فمثال الإنسان هو نموذجه الكامل، والإنسان الشخصي يبتعد منه ويقرب بنسبة كماله
8. وهي لا يحدها زمان ولا مكان وإلا كانت مشخصة.
9. وهي معقولة، أعني أن في إمكان العقل إدراكها، وذلك بالبحث والاستنباط.

جمهورية أفلاطون (المدينة الفاضلة)

ما يعنينا من أفلاطون هنا هو كتابه "الجمهورية". كانت الفترة التي كتب فيها أفلاطون كتاب أو محاورة "الجمهورية"، فترة اندحار لأثينا، فلقد انتهت الحرب البلوبونيزية 431-404 (وهي الحرب الأهلية التي وقعت بين أثينا وإسبرطة) بالهزيمة الساحقة لأثينا، وضعفت المدن المستقلة التي شاركت فيها بتأثير الصراع الطويل والنزاعات الداخلية. وقد أدى بها التفكك إلى أن تكون عرضة للغزو الأجنبي، وسمح لدولة إسبرطة العسكرية والتسلطية أن تنتصر عليها. وقد كان أفلاطون في الثالثة والعشرين عندما وضعت الحرب أوزارها، تاركة أثينا في حالة من الإنهاك الاقتصادي والسياسي. ولهذا كان من الطبيعي أن تهتم كتاباته اهتماماً شديداً بالقضايا السياسية والاجتماعية، وأن يحاول استخلاص بعض الدروس والعِبر من هزيمة أثينا وانتصار أسبرطة. ومن المعروف أن عقل المهزوم غالباً ما يكون مفتوناً بقوة الغزاة الفاتحين، فعندما شرع أفلاطون في بناء مدينته المثالية اتخذ اسبرطة نموذجاً له.

في محاورته "الجمهورية" خطط أفلاطون جمهوريته، أو مدينته المتخيلة. وهي بطبيعة الحال لم تتحقق يوماً على أرض الواقع، ولكنها ربما ألهمت مفكرين لاحقين، وربما تحققت بعض أفكارها الجزئية في فترات لاحقة.

**3-1: فما هي جمهورية أفلاطون؟**

تسمى المدينة أو الدولة المتخيَّلة يوتوبيا Utopia . الكلمة توبيا topia تعني مكان، أما Utopia فتعني اللامكان. فهي إذن مدينة متصوَّرة أو متخيَّلة وهي ليست في مكان، أي غير موجودة.

رأى أفلاطون أنّ غاية الحياة الإنسانية وفضيلتها هي العلم، والعلم لا يتحقق إلا عن طريق التعليم، والتعليم لا يتم إلا بالتربية، والتربية لا يمكن أن تُترك للفرد وحده، بل لابد من شيء يعلوه وهو الدولة، فالغاية من الدولة إذن هي تحقيق الفضيلة التي هي العلم عن طريق التربية. وإيجاد أحسن الظروف المهيأة لكي تتحقق الفضيلة على أيدي الذي تملكوها واستطاعوا أن تكون لديهم القدرة على تلقين الناس إياها: أي أن الغاية من الدولة أن تهيئ الظروف المساعدة على تحقيق الفضيلة عن طريق من يملكون العلم وهم الفلاسفة. فيجب أن تكون الفلسفة هي الغاية الرئيسة للدولة. ولهذا فمهما اختلفت الطرق، فلابد أن تؤدي إلى شيء واحد، وهو تحقيق الغاية.

**نظام الطبقات في الدولة**

 والدولة ليست مكونة من فرد واحد، وإنما هي مكونة من أفراد كثيرين. وهؤلاء الأفراد مختلفون من حيث الطبيعة، وهذا الاختلاف يرجع في النهاية إلى الاختلاف الذي نلاحظه في النفس الإنسانية، بل وفي الوجود بوجه عام. والنفس الإنسانية تنقسم على ثلاثة أقسام: القوة العاقلة، والقوة الغضبية، والقوة الشهوية. والرأس مقرّ القوة العاقلة، والصدر مقرّ القوة الغضبية، والبطن وما دون ذلك مقرّ القوة الشهوية. وكذلك الحال في الدولة، فهي أيضاً تنقسم على ثلاثة أقسام بموجب سيادة إحدى هذه القوى على الأخرى. فهناك طبقة اجتماعية تسودها القوة العاقلة، وهناك طبقة اجتماعية تسودها القوة الغضبية، وهناك طبقة اجتماعية تسودها القوة الشهوية. ولما كانت القوة العاقلة في النفس هي المسيطرة، أو يجب أن تكون لها السيطرة، كذلك يجب أن تكون الطبقة الاجتماعية التي تسودها القوة العاقلة هي المسيطرة في الدولة، وهذه الطبقة هي طبقة الفلاسفة. لأن الفلاسفة دون غيرهم من الناس تكون لديهم القوة العاقلة هي السائدة والمسيطرة. كذلك الحال في الطبقة الثانية، فلما كانت الدولة في حاجة إلى الدفاع عنها خارجياً وداخلياً، فهي في حاجة إذن إلى طبقة تتمثل فيها القوة الثانية، أي الغضبية، وهذه الطبقة هي طبقة المحاربين والجيش. ففيها تتمثل الشجاعة والقوة الغضبية أحسن تمثيل، كما أنها المُعين للحكام من الفلاسفة على تحقيق أوامرهم التي يصدرونها بحق الطبقة الثالثة. وهذه الطبقة الثالثة ستكون طبقة الشهوات، بمعنى المنافع المادية المختلفة من زراعة وتجارة وصناعة. وهؤلاء لا يحفل بهم أفلاطون نهائياً، ولا يُعنى بأمر تربيتهم، بل يكتفي بأن يقول إن هؤلاء الزرّاع والصنّاع والتجار عليهم أن يتبعوا الأخلاق الشعبية والأوضاع التقليدية. ولما كانت الصفة المميزة لهذه الطبقة هي المِلكية، وكانت هذه الصفة هي التي تجعل هذه الطبقة في هذا المستوى، فإنه من المحرّم إطلاقاً على الطبقتين الأخريين هذا الحق، أي حق الملكية. وإنما يعيشون على حساب الطبقة الثالثة عيشة شيوع ليس فيها مِلكية، وليس فيها أي اتجاه نحو كسب أو نفع. وهنا نجد أفلاطون يحتقر العمل. وفي الحقيقة إن هذا الاحتقار كان سائداً في الفكر اليوناني القديم.

إذن إذا انقسمت الدولة بهذا الشكل، وعملت كل طبقة بعملها لا تتعداه إلى عمل آخر يخص طبقة أخرى، حينذاك يكون الانسجام بين طبقات الدولة الواحدة، وكذلك يكون الانسجام بين قوى النفس الواحدة. وهذه هي العدالة: فالعدالة في الدولة عند أفلاطون ليست المساواة بين أفراد المجتمع، لأن الأفراد غير متساوين من حيث طبيعتهم، ولا يجب أن يكونوا متساوين، بل العدالة هي الانسجام بين طبقات المجتمع من خلال أن تؤدي كل طبقة عملها الذي يتناسب معها. وهذه هي أيضاً العدالة في النفس: أي أن تؤدي كل قوة من قوى النفس وظيفتها الخاصة بها، وتكون منسجمة وظيفياً، وتكون السيادة بالطبع للنفس العاقلة، بالضبط كما أن السيادة في الدولة لطبقة الفلاسفة لأنها الطبقة العاقلة.

أما عن صلة الفرد بالدولة، فالفرد يجب أن يكون من أجل الدولة، وعلى هذا يجب أن لا يفعل شيئاً خارج الدولة ولا ضدها، بل يتعين عليه أن يفعل كل شيء من أجل الدولة. ولهذا يجب أن يُفصل الفرد عن والديه منذ ميلاده، ويُسلَّم إلى الدولة. وأفلاطون ينظر إلى الزواج والعائلة نظرة مختلفة عن المألوف. فالغرض من الزواج عند أفلاطون هو إيجاد الأفراد، والمرأة مهمتها إنجاب الأطفال. ذلك لأن الزواج والأسرة هما مصدر كل شر، من حيث إن الغاية من الدولة هي تحقيق المنافع. فإذا كان الزواج والأسرة هما مصدر اختلاف المنافع، ومن ناحية أخرى إذا كانت المِلكية هي مصدر اختلاف المنافع، فلذلك يجب أن يُقضى على المِلكية والأسرة من أجل أن تقوم الدولة المثلى. وعلى هذا ستبدأ الدولة بأن تتسلم الأطفال ويوضعون في ملاجئ لتربية الأطفال. ثم يؤخذ الأطفال حينما يبلغون سناً معينة، فيربون تربية معينة بحسب ما لديهم من مواهب، فالذين يصلحون للجيش يربون تربية عسكرية، والذين يصلحون لإدارة الدولة يربون تربية فلسفية.

أرسطوطاليس (384 ق. م. – 322 ق. م.)

يسمى أرسطو المعلم الأول، فلقد كتب كتباً علمية في جميع حقول الفكر الإنساني تقريباً. لديه كتب في النفس، والطبيعة، وما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا)، والأخلاق، والسياسة، والمنطق، والشعر، والبلاغة، والفلك.

كان أرسطو تلميذاً لأفلاطون، ولكنه انتقد أستاذه، وكان يرى أن الحق أولى بالاتباع. توصف فلسفته بأنها فلسفة واقعية بمقابل فلسفة أفلاطون التي توصف بأنها مثالية. كان أفلاطون مثالياً لأنه اعتقد أن أساس الوجود والحقيقة هي نظرية المثل. أما أرسطو فقال أن لا وجود لعالم المثل، إن الموجود الحقيقي والواقعي هو العالم الذي نعيش فيه. ولذلك، اتجه أرسطو إلى تفسير هذا العالم من داخله من دون اللجوء إلى غيره أو ما فوقه. إن الحقيقة الكلية ليست موجودة في عالم المثل بل هي موجودة في أذهاننا. كان أرسطو يتسم بروح العالم الواقعي التجريبي، فحاول أن يفسر الحركة الفيزيائية والتغير. لذلك ميز أربع علل أو أسباب: العلة المادية، والعلة الصورية، والعلة الفاعلة، والعلة الغائية. فوجود كل شيء في العالم يتحدد بهذه العلل الأربعة. صورة الكرسي هي علته الصورية، ومادة الكرسي التي يُصنع منها هي علته المادية، وصانع الكرسي هو علته الفاعلة، والغاية من وراء صناعة الكرسي هي علته الغائية.

**آراء أرسطو في الاجتماع الإنساني**

في بداية كتابه "السياسة" يقول أرسطو: "إن كل دولة هي بالبديهية اجتماع، وكل اجتماع لا يتألف إلا لخير معين مادام الناس لا يعملون شيئاً إلا لأنه بدا لهم خيراً. فكل الاجتماعات البشرية تهدف إلى تحقيق خير. وأهم الخيرات يكون موضوع أهم الاجتماعات. وأهم الاجتماعات هو الدولة أو الاجتماع السياسي."

فكيف تتكون الجماعة السياسية؟

من حيث الزمان فإن أول جماعة هي الأسرة، والغرض منها القيام بالحاجات اليومية. وتتألف الأسرة من الزوج والزوجة والبنين والعبيد. فالرجل رأس الأسرة لأن الطبيعة وهبته العقل الكامل، وإليه تعود أمور المنزل والمدينة. أما المرأة فأقل عقلاً، ووظيفتها العناية بالأولاد والمنزل تحت إشراف الرجل. أما العبيد، فإن دورهم هو تحصيل الثروة الضرورية لقوام الأسرة. وأرسطو يعتبر الرقَّ، العبودية، نظاماً طبيعياً، ويرى أن العبد "آلة حية"، و"آلة للحياة" ضرورية لضرورة الأعمال الآلية المنافية لكرامة المواطن الحر. والعبد آلة "منزلية"، أي أنه يعاون على تدبير الحياة داخل المنزل ولا يعمل في الحقل أو في المصنع.

**4-2: من هو العبد؟**

يقول أرسطو إن التقابل بين الأعلى والأدنى موجود في الطبيعة بأكملها، وهو موجود بين النفس والجسم، وبين الإنسان والحيوان، بين الذكر والأنثى. وكلما وجد هذا التقابل كان من الخير أن يسيطر الأعلى على الأدنى. والطبيعة تميل إلى إيجاد مثل هذا التمايز بين البشر بأن تجعل بعضهم قليلي الذكاء أقوياء البنية، وبعضهم أكفاء للحياة السياسية. وعليه، فهناك من الناس أحرار بالطبع، ومنهم عبيد بالطبع. إن الطبيعة وهي ترمي إلى البقاء هي التي خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة. فالطبيعة هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيداً، كما أن الطبيعة هي أيضاً التي أرادت للكائن الكفء من حيث خصائصه الجسدية أن ينفذ الأوامر بوصفه عبداً. وبهذا تمتزج منفعة السيد ومنفعة العبد. إن شعوب الشمال الجليدي وأوروبا شجعان، ولكنهم يفتقرون إلى الذكاء والمهارة والأنظمة السياسية، لهذا هم عاجزون عن التسلط على جيرانهم. أما الشرقيون فيمتازون بالذكاء والمهارة، ولكنهم يفتقرون إلى الشجاعة، لهذا فهم مغلوبون ومستعبدون إلى الأبد. أما الشعب اليوناني فيجمع بين الميزتين: الشجاعة والذكاء. كما أن بلده متوسط الموقع، لهذا هو يحتفظ بالحرية، إذن فاليوناني سيدٌ حرّ. والأجنبي (البربري) عبدٌ له، ولا يجوز لليوناني أن يستعبد أخاه اليوناني.

إذن فالاجتماع الطبيعي في كل الأزمان إنما هو العائلة. والاجتماع الأول لعدة عائلات هو القرية، التي يمكن تسميتها المستعمرة الطبيعية للعائلة، لأن الأفراد الذين يعمرون القرية هم أولادها، وأولاد أولادها وهي اجتماع عدة أسر لتوفير شيء أكثر من الحاجات اليومية. ويمكن القول إن القرية تسمح أكثر من الأسرة بتقسيم العمل وإرضاء حاجات أكثر تنوعاً، والدور الثالث اجتماع عدة قرى في هيئة تامة هي المدينة.

إن اجتماع عدة قرى يؤلف دولة تامة يمكن أن يُقال عنها إنها بلغت حد كفاية نفسها على الإطلاق بعد أن تولدت من حاجات الحياة واستمدت بقاءها من قدرتها على قضاء تلك الحاجات كلها. وعليه، فإن الدولة تأتي دائماً من الطبع، شأنها في ذلك شأن الاجتماعات الأولى التي تكون الدولة غايتها الأخيرة. لأن طبع كل شيء هو غايته. ومن هذا ينتج: أن الدولة هي من عمل الطبع، وأن الإنسان كائن اجتماعي. لا يمكن الشك في أن الدولة هي بالطبع فوق العائلة وفوق كل فرد، لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء، لأنه إذا ما تفكك الكل فإن الجزء لا بقاء له. فالطبع إذن هو الذي يدفع الناس بغرائزهم إلى الاجتماع السياسي. وهنا يقول أرسطو عبارة صادقة في كل زمان ومكان: إن الإنسان الذي يعيش بلا قوانين وبلا عدل هو أقل من الحيوانات مرتبة. فالعدل ضرورة اجتماعية لأن الحق هو قاعدة الاجتماع السياسي، وتقرير العادل هو ذلك الذي يرتب الحق.

إن الدولة هي أرقى الجماعات، فهي تكفي نفسها بنفسها وتضمن للأفراد ليس فقط المعاش بل المعاش الحسن، وهذه هي طبيعتها النوعية. فمهمة الدولة توفير الأسباب لكي يبلغ أفرادها سعادتهم، وهذه الأسباب مادية وأدبية، والأولى خاضعة للثانية، لأن سعادة الإنسان خلقية عقلية. فالمعاش الحسن يشمل شيئين: العمل الخلقي والعمل العقلي. من الوجهة الأولى تعاون الدولةُ الأفرادَ على اكتساب الفضائل وتقدم لهم فرصاً أكثر لمزاولة هذه الفضائل في العلاقات الاجتماعية المتعددة، ومن الوجهة الثانية تنشط الدولة العمل العقلي بما تسمح به من تقسيم أكثر واتصال العقول بعضها ببعض والحالة التي يزدهر فيها العملان الخلقي والعقلي هي حالة السلم والرخاء والفراغ.

كان أرسطو من المدافعين عن مفهوم دولة المدينة، أي الدولة التي تتألف من مدينة واحدة فقط، فهو يرفض فكرة الدولة الواسعة التي تضم مدناً كثيرة. فقد كان يرى أن المدينة أرقى صور الحياة السياسية، أما الدول التي هي أكبر من المدينة، أي الإمبراطورية، فهي مركب غير متجانس. فيجب ألا ينقص عدد الأهالي عن الحد الأدنى الضروري لكفاية المدينة، ولا يتجاوز أكثر من مائة ألف. لأن المواطنين يجب أن يعرف بعضهم بعضاً.

وللحكومة أشكال مختلفة، تختلف باختلاف الغاية التي ترمي إليها. والحكومة تكون صالحة عندما تكون غايتها خير المجموع، وفاسدة عندما يكون هدف الحكام غاياتهم الخاصة. ويحدد أرسطو أنواع الحكومات بالشكل الآتي:

الحكومات الصالحة الحكومات الفاسدة

1. المَلَكية 1. الطغيان
2. الأرستقراطية 2. الأوليجاركية
3. الديمقراطية 3. الغوغائية.

فالمَلَكية هي حكومة الفرد الفاضل العادل، والأرستقراطية هي حكومة الأقلية الفاضلة العادلة، والديمقراطية حكومة الأغلبية الفقيرة التي تمتاز بالحرية والمساواة واتباع الدستور. أما الطغيان فهي حكومة الفرد الظالم، والأوليجاركية هي حكومة الأغنياء والأعيان، والغوغائية هي حكومة العامة التي تتبع أهواءها المتقلبة.

**........................................**